التآلف والتّسامح بين الأديان والمذاهب: جزيرة جربة أنموذجا

علي الصّولي

المعهد العالي لأصول الدّين بتونس،

جامعة الزيتونة.

سنحاول في هذه المداخلة الموجزة أن نتطرق إلى موضوع لفت انتباهي منذ مدة بالرغم من بعض الاحتراز التي قد تراود الباحث عند تناول المسألة اليهوديّة، نظرا لحساسيتها لدى البعض وقابليّتها لكلّ تأويل إيديولوجي، إضافة إلى ندرة المصادر والمراجع، حتّى لدى المثقّفين من اليهود أنفسهم. لذا سأسعى إلى تلمّس القضيّة بأكثر ما يمكن من الموضوعيّة متجنّبا في ذلك الخوض في التفاصيل التاريخيّة أو العقديّة التّي هي محلّ خلاف شديد وتأويلات متضاربة تقود حتما إلى نوع من تعقيد البحث وبالتّالي السّقوط في الأحكام المعياريّة والقناعات الذّاتية.

فهي إذن محاولة لتقديم صورة "بانوراميّة" للحضور اليهودي بالبلاد التّونسية من خلال الأنموذج الجربي الذي يعتبر مثالا طريفا لافتا للانتباه نظرا لثراء وتنوّع التّركيبة الإثنيّة لسكّان الجزيرة الّذي انعكس بدوره على انتماءاتهم

الدّينية والمذهبيّة في رقعة ترابيّة صغيرة تميّزت باحتضانها لأقلّيات دينيّة مسلمة متمثّلة في الإباضيّة وطائفة يهوديّة استوطنت الجزيرة منذ النّصف الأوّل من الألفيّة الأولى قبل الميلاد.

لذا رأينا من الضّروري أن نتطرّق أوّلا إلى الخصائص التّاريخيّة والجغرافيّة لجزيرة جربة كمدخل لفهم صمود التعايش والوئام بين معتنقي الديانتين اليهودية والإسلام منذ فتح الجزيرة أواخر منتصف القرن الأول الهجري/ أواخر القرن السادس الميلادي إلى يومنا هذا، ثم قدمت الأنموذج الجربي في تنوع تركيبته العرقية والدينية والمذهبية، والتّطرق إلى محطة هامّة من تاريخ الحداثة التونسية تمَّ خلالها التّعبيرُ عن رغبة في تصحيح مسار العلاقة القائمة بين الدّولة التونسيّة ورعاياها اليهود وفق مفهوم حديث للمواطنة التّي ترتكز أساسا على مبدأي العدالة والمساواة، وموقف رجل الدّولة التونسي ابن أبي الضياف من هذه المسألة. وأخيرا سقنا بعض الأمثلة من الواقع التّاريخي التّونسي المُعبَّر عن تجذّر عقلية التّعايش والتّسامح بين المسلم واليهودي في هذه الرّقعة الصّغيرة من العالم الإسلامي.

1) الخصائص الجغرافيّة والتّاريخية لجزيرة جربة :

أ- الخصائص الجغرافيّة لجربة :

إنّ ما يميّز جزيرة جربة هو موقعها الجغرافي وطبيعتها البحرية، ممّا جعلها محلّ اهتمام الغزاة و في الآن نفسه مأملا ومأمنا لكلّ لاجئ وطالِبِ حقٍّ.

فهذه الجزيرة – وهي أكبر جزر السّواحل التّونسية – تقع في الرّكن الجنوبي من الحوض الشّرقي للبحر الأبيض المتوسط بخليج قابس، ولا يفصلها عن البرّ إلاّ مسافة قصيرة بقنال "أجيم". إلاّ أنّ طبيعة المدّ والجزر الواسعين جعل مساحتها مرنة بحيث تتسع وتضيق حسب قرب أو بعد البحر منها، الشيء

الذي منحها مناعة خاصة، من ذلك وعلى سبيل المثال- فإنّ السفن الرّومانية اضطرّت إلى التخلّص من حمولتها خلال الحرب البونية الأولى سنة 253 ق.م، وخلال القرن السادس عشر وقعت حادثة شبيهة لأسطول الغزاة الإسبان بقيادة "بيدرو نافارو"..

ب- الخصائص التّاريخيّة للجزيرة :

عرفت جربة قديما باسم "جزيرة اللّيتوس" في النّصوص الإغريقية، ويبدو أنّ هذا النّبات (النّبق) كان موجودا بكثرة في الجزيرة، وقد أمكن تحديد موقع إحدى قراها القديمة "مننكس" ببرج القنطرة، وكان اسم جربة (بفتح الجيم وكسرها) قد انجرّ لها من اسم قبيلة نزلت بالجزيرة من قبائل "لماية" البربرية، وهي بطن من بطون قبيلة "كتامة" البربرية الشّهيرة.

إنّ الواقع البشري المذهبي العمراني بجزيرة جربة هو في حقيقة الأمر حصيلة مسار تاريخي ثريّ بالأحداث والإنجازات، طبع خصوصية الجزيرة.

فبعد أن تلاحقت حضارات عديدة توالت على البلاد التّونسية منذ فجر التّاريخ إلى العهد البيزنطي، عرفت جربة منذ الفتح الإسلامي سنة 47هـ/667م على يد الصحابي الأنصاري "رويفع بن ثابت الأنصاري". ومن الأهمية بمكان أن نشير في هذا السياق إلى أنّ قائد فتح جربة "رويفع ابن ثابت " ينتسب إلى "بني مالك بن النجار" أخوال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، حيث تذكر بعض مصادر السيرة النبويّة أنّ رسول الله كان نقيبا عليهم. وقد شهد هذا الصحابي العمليات العسكريّة التّي قادها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لفتح حصون "خيبر"، ممّا يؤكّد أنّه كان على اطّلاع دقيق ببنود المعاهدة بين المسلمين واليهود الّتي شملها ميثاق المدينة الّذي أقرّه الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم كدستور ينظّم مجتمع دولة المدينة الفتيّة لإرساء مناخ التّعايش السّلمي بين كلّ الأطراف.

وقد عبّرت المعاهدة المذكورة على احترام إنسانيّة الإنسان والاعتراف بحقّه في العيش داخل فسيفساء هذا المجتمع، وإن كان لا ينتمي إليه دينيّا، لأنّ الهدف منها هو الالتزام بالقواسم المشتركة مع احترام الخصوصيّات الدينيّة للآخر.

ومن أهمّ تلك البنود التّي نَصَّت عليها المعاهدة بين المسلمين واليهود :

- التزام المسلمين بالعدل مع اليهود.
- وفي المقابل التزام اليهود بالمشاركة في نفقات الدّفاع عن المدينة موطن الجميع.
- احترام المعاهدات السابقة بين اليهود ومن تحالف معهم.
- ضمان الحريّة الدينيّة والمدنيّة لليهود.
- المسؤولية على الجرائم لا تلزم إلاّ المخالفين (أي إقرار مبدأ شخصية العقوبة).
- عدم إجراء معاهدات بين اليهود وقريش في تلك الفترة.

لقد كان هذا القائد على دراية بالمنهج النّبوي في التّعامل مع الطائفة اليهوديّة في زمن السّلم والحرب حيث ستتوفر له شخصيّا فرصة التّعامل معهم عند فتح إفريقية وعلى وجه التّحديد عند فتح جزيرة جربة التي كانت آهلة بالطّائفة اليهوديّة قبل الفتح وإبّانه.

وتذكر المصادر التّاريخية أنّ هذا الصحابي شهد فتح مصر ثمّ ولاّه معاوية ابن أبي سفيان على طرابلس سنة 46هـ/666م [1]. وبعدها بسنة كانت غزوته لإفريقية. وقد حفظت لنا المصادر جزءا من نصّ الخطبة الّتي توجّه بها هذا القائد إلى جنده الفاتح للجزيرة. ونظرا لأهمية هذا النصّ المرجعي في

1) الدباغ (أبو زيد عبد الرحمان الأنصاري)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج1، تح إبراهيم شبوح، المكتبة العتيقة، تونس، ط.2، 1993، ص ص 122-123.

الوقوف على مدى التزام قادة الفتح الإسلامي – من جيل الصحابة – بالمنهج النّبوي في التّعامل مع الآخر غير المسلم في زمن الحرب والسلم، نسوق نصّه من "معالم الإيمان" للدبّاغ كما يلي :

"... أخبرني حنش الصنعاني قال : غزونا المغرب وعلينا رويفع ابن ثابت الأنصاري، ففتحنا جزيرة يقال لها جربة، فقام فينا رويفع خطيبا فقال : إني لا أقول فيكم إلا بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قام فينا يوم خيبر حين افتتحناها فقال :

– لا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره – يعني إتيان الحبالى من الفيء–.

– ولا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي (ثيب) حتى يستبرءها.

– ولا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر ببيع مغنم حتى يقسّم.

– ولا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها ردها فيه.

ولا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبا من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه رده[2].

اعتمادا على قراءتنا لنصّ خطبة "رويفع ابن ثابت" في سرايا جنده الفاتح يبدو أنّ السّياسة التي اتّبعت في فتح جزيرة جربة كان لها الوقع الطيّب في نفوس متساكني الجزيرة وخصوصا من طائفة اليهوديّة حيث نجد لذلك صدى لاحقا أثناء أحداث فتح الأندلس، فقد أكّدت المصادر الإسلاميّة الدّور الفعّال الّذي لعبه يهود شبه الجزيرة الأيبيريّة خلال العمليّات العسكريّة الأولى لفتح

2) عبد الوهاب، حسن حسني، ورقات في الحضارة العربيّة بإفريقيّة التونسيّة.ج3. مكتبة المنار، تونس 1965، ص 255.

الأندلس (92هـ/710م) والّذي فسّره المؤرّخون بوضعيّة الدّونيّة والاضطهاد التي كان يعيشها هؤلاء تحت حكم القوط الغربيّين ممّا جعل فئة اليهود من بين الفئات التي حظيت بثقة المسلمين بالأندلس حيث حفظ لنا كتاب "أخبار مجموعة" لمؤلف مجهول نصّا يتضمّن شهادة تاريخيّة بالغة الأهميّة من حيث البعد الحضاري، وذلك في حقّ اليهود، حيث يقول صاحب الأخبار وهو بصدد الحديث عن اجتياح طارق بن زياد وجنوده جنوب الأندلس في طريقتهم لعاصمة القوط "طليطلة" آنذاك : **"فلما بلغوا مدينة ألبيرة، حصروا مدينتها فافتتحت، فألفوا بها يومئذ يهودا، وكانوا إذا ألفوا اليهود ببلدة ضمّوهم إلى مدينة البلد، وتركوا معهم من المسلمين طائفة، وفعلوا ذلك بغرناطة ولم يفعلوا ذلك بمالقة لأنّهم لم يجدوا بها يهودا".**

ويبدو من خلال هذا النصّ أنّ للمسلمين - زمن الفتح - قاعدة في التّعامل مع أبناء الطائفة اليهودية أساسها التعاون والإدماج واحترام الخصوصيات الثقافية والدّينية، وهو ما قد يكون شجّع مجموعات كبيرة من الطوائف اليهوديّة على التّوافد على افريقيّة منذ بداية الفتح الإسلامي لها حيث كوّنوا بمرور الزّمن أقليّة بدأت تتضخّم شيئا فشيئا وأصبح لها حضور فعّال في عدّة حواضر بالغرب الإسلامي، منها بشكل لافت للانتباه مدينة القيروان الّتي أنشأ اليهود فيها حيّا مستقلا بهم سمّوه حارة خيبر كما كان لهم أيضا سوق خاص بهم ومقبرة تسمّى "اليهوديّة" (3).

2) الأنموذج الجربي : بين تنوّع التّركيبة العرقيّة وتعايش الأديان والمذاهب :

إنّ المتأمل في التّوزيع الجغرافي للفئات الاجتماعيّة في جربة لا يمكنه فهم التّركيبة الإثنية المتنوّعة في الجزيرة إلاّ بالرّجوع إلى رصد الخارطة

3) ادريس، الهادي روجي: الدولة الصنهاجية : تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، تح حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط.1، بيروت، 1992.

الدّينية والمذهبيّة للسكّان التي تبلورت ملامحها النهائيّة بين منتصف القرن السّادس عشر ومنتصف القرن التّاسع عشر ميلادي [4] رغم أنّ القضايا المذهبيّة في جربة لم تعد تعرف بنفس الحدّة التي شهدتها الجزيرة خلال الفترة الحديثة، إلاّ أنّ تأثيرها لا زال فاعلا بتمظهرات جديدة مختلفة راوحت بين الدّيني والاقتصادي والاجتماعي في عصر الدّولة المركزيّة الحديثة.

إنّ إدراك خصائص الحياة الاجتماعيّة ومميّزاتها بالجزيرة تستدعي دراسة شموليّة دقيقة للتّفكير المذهبي وتطوّره والمؤسّسات المتّصلة به [5]، مع توخّي منهجيّة تاريخيّة تنطلق من دراسة المجتمع الجربي في اتّجاهين متوازنين : دراسته من الدّاخل انطلاقا من الانتماء المذهبي- خصوصا بالنّسبة إلى المذهب الإباضي في بعديه الوهبي والمستاوي – والذي هيمن بنفوذه الدّيني والاجتماعي على جلّ الجزيرة، وكذلك دراسته من الخارج بتتبّع مسار الحضور المذهبي المالكي الذي حضي بدعم من السّلطة المركزيّة منذ انتصاب الدّولة العثمانيّة بالبلاد التونسية في أواخر القرن السّادس عشر، وكان هذا المذهب قد اصطدم بهياكل النفوذ المحلي للمجموعات الإباضيّة المهيمنة على الجزيرة، وهو ما أفرز نوعا من الصّراع الظاهري أحيانا والخفيّ أحيانا أخرى ترجمته الفئات الاجتماعيّة المنتمية للتيّارين الخارجي ممثّلا في المذهب الإباضي والسنيّ ممثّلا في المذهب المالكي والحنفي بشكل أقلّ حدّة.

إلاّ أنّ الغوص في تفاصيل تلك التشعّبات المذهبيّة والإثنيّة عبر تطوّرها التّاريخي ليس من مهام هذه الدّراسة الموجزة، لذا فقد ارتأينا الاقتصار على الإشارة إلى الخطوط العريضة للمعطى الإثني/الدّيني الّذي ميّز الجزيرة عن بقية جهات البلاد التّونسيّة وأكسبها خصوصيّتها الثّقافية الّتي أفرزت ما يسمّى

---

4) وذلك إثر بداية الحضور العثماني بالبلاد التونسيّة سنة 1574م.
حول المؤسّسات الدينية، أشارت جمعية صيانة جزيرة جربة إلى وجود 284 معلما دينيّا.

5) وذلك إثر بداية الحضور العثماني بالبلاد التونسيّة سنة 1574م.

لدى بعض الباحثين بـــ"ظاهرة الجربي" [6] والّتي تمثّل بدورها مقوم من مقوّمات الهويّة التّونسية، كما اعتبرها البعض "ظاهرة دينيّة في تجمّعات قروية" [7].

ويمكن القول إجمالا أنّ التّركيبة الاجتماعيّة لسكّان جربة طبعت بطابع ديني ومذهبي. فالجزيرة بحكم موقعها الجغرافي كانت محلّ استقطاب ولجوء للأقليات العرقيّة والدّينية منذ أقدم العصور، كما كانت محلّ أطماع القوى الخارجيّة بحكم موقعها الإستراتيجي، ورغم موجات الهجرة إليها ومنها فإنّ جربة نحتت لنفسها كيانا فريدا من نوعه لا في البلاد التّونسية فحسب وإنّما على مستوى حضارات حوض المتوسط، فكان الغالب على تاريخها أنها جزيرة الأقليّات العرقيّة والدّينية الّتي احتضنت أجناسًا متعدّدة الأعراق والأديان والمذاهب نسجت بينها علائق التّعايش والوئام والوفاق بحكم المصير المشترك، حيث تجد أجناسا من أصول بربريّة وأفريقيّة وعبريّة وعربيّة وتركيّة، وديانتين هما الإسلام واليهوديّة، وتيّارين من تيارات الفكر الدّيني الإسلامي هما التيّار الخارجي المتمثل في المذهب الإباضي، والتيّار السنّي المتمثل في المذهب المالكي، وهي أقلية فرضتها السّلطة المركزيّة منذ أواخر العهد الحفصي أيّام حكم أبي عمرو عثمان (1435–1488)، وتمّ إحياؤه في العهد التركي المبكر (في منتصف القـ 10هـ/16) أيّام كانت جزيرة جربة خاضعة لحكم باشوات طرابس، ثمّ تدعم في مرحلة ثانية في عهد علي باشا على امتداد القرن التّاسع عشر للميلاد، وفي هذه الفترة تمكّنت من تقوية نفوذها وإرساء مؤسّساتها الدّينية

6) الجليدي، عبد القادر: الظاهرة الدينيّة في التجمعات القرويّة: النموذج الدراسي: جزيرة جربة، جامعة تونس الأولى– كليّة العلوم الاجتماعية والإنسانيّة، أطروحة المرحلة الثالثة، 1990، ص 271.

7) الجعبيري، فرحات: نظام العزابة عند الإباضيّة الوهبيّة في جربة، المعهد القومي للآثار والفنون، تونس 1975، ص 186.

والاقتصاديّة التي نجحت في إحداث اختراق في نظام العزابة، حيث تمّ القضاء على بعض هياكله دون القضاء على بعضها الآخر [8].

ومن خلال عرضنا السّريع للمشهد الاجتماعي – الدّيني في جربة نشير إلى وجود أعرق جالية سكنت شمال إفريقيّة، وهي الجالية اليهوديّة الّتي تستحقّ إفرادها بمبحث خاصّ.

3) جربة ملجأ لأعرق طائفة يهوديّة :

إنّ يهود المغرب العربي عموما يرجعون إلى أصول ثلاثة مختلفة :

– الفلسطينيّون، وهم اليهود الّذين هاجروا من فلسطين القديمة في أواخر القرن السادس قبل الميلاد حيث اختار الكثير منهم الاستقرار بجزيرة جربة.

– البربر المتهوّدون (توات، برغواطة....)

– اليهود اللاّجؤون إلى أطراف البلاد من الأصقاع الأوروبيّة الغربيّة الواقعة في الشّمال الغربي من المتوسّط وهي البرتغال، وإسبانيا وفرنسا وإيطاليا.

وعموما، فإنّ يهود البلاد التّونسية ينقسمون إلى طائفتين بحسب المنبت القطري الأصلي لكلّ منهم : "طائفة التّوانسة" و"طائفة القرانة".

فاليهودي التّونسي هو الّذي ينتسب إلى سلالة سكنت البلاد قبل ظهور الإسلام كيهود جربة أو جاءتها حديثا من بلد إسلامي آخر غير تونس. ومن السّمات الّتي تميّزهم عن الغرانة الألقاب العربيّة التي يحملونها مثل : علّوش، بلعيش، بونان، بلحسن، غزلان، بجاوي، صباغ، زيتون. وكانوا متفوّقين عدديا

---

8) SEBAG, Paul : l'évolution d'un ghetto nord-africain : la hara de Tunis, P.U.F, 1959, p.9.

عن اليهود التّوانسة ويتجمّع أغلبهم في حارة اليهود بمدينة تونس حيث يعود تواجدهم فيها إلى القرن العاشر الميلادي [9] مع وجود بعض اليهود البدو في منطقة السّرس (الكاف) وورغمّة بالجنوب التونسي.

أمّا اليهودي القرني، فهو الذي ينحدر من بلد أوروبيّ ممّن وقع إجلاؤهم بالقوّة من الجزيرة الإيبيرية في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد لأنهم شكّلوا خطرا أمام الطبقة البورجوازية المحليّة الّتي كانت تعتبرهم عقبة أمام نموّها الاقتصادي، وهذا ما يفسّر لقب البرتغاليّين الذي يطلق على الكثير منهم.

وبينما انتقلت حشود منهم للبلاد التّونسية لتشكّل نواة سكنية مستقلة تحت إسم "جالية المنفى"، توجهت حشود أخرى إلى الجزيرة الإيطاليّة ولكن اضطرّ البعض منهم في بداية القرن التّاسع عشر للميلاد إلى مغادرتها في اتّجاه البلاد التّونسية، لذلك ينتسب جلّ هؤلاء إلى مدينة "القرنة" الإيطاليّة، وقد انضمّ اليهود القرانة إلى جالية المنفى.

هذا وإنّ استعراضا سريعا لجداول أسماء هؤلاء اليهود يكشف لنا عن أصولهم القطريّة السّابقة. فهناك الألقاب الإسبانيّة مثل "فلانزي"، "باريانتي" "مدينة"، "كوستا". وهناك الألقاب البرتغاليّة مثل "لومبروزو"، "سبينوزا" "ماندوزا" إلخ. وهناك الألقاب الإيطالية مثل : "فورتي"، "أورتانا"، "مونتي فيوري"، "سيزانا" إلخ. وقد اقتصر تواجد هؤلاء على تونس العاصمة خاصّة وبعض المدن السّاحليّة الأخرى كسوسة والمنستير وصفاقس نظرا لتعاملهم التّجاري والمصرفي مع البلدان الأوروبيّة.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ "اليهود التّوانسة" كانوا متفوقّين عدديّا على اليهود الغرانة، إلاّ أنّ المستوى الاقتصادي ليهود القرانة كان يفوق بكثير المستوى الاقتصادي والمعيشي لليهود التّوانسة الّذين كان أغلبهم يحترفون

9) الوثائق العامّة للحكومة التونسيّة، سلسلة أ، صندوق : 285 ملف8، وثيقة رقم 104.

المهن الهامشيّة الصغرى ويلهث أغلبهم وراء لقمة العيش، ممّا يجعل التّفاوت في مستوى العيش بينهما غير متكافئ بالمرّة.

هذا وقد انفصل اليهود القرانة رسمياً عن طائفة اليهود التّوانسة، بداية من العهد الحسيني وبالتّحديد سنة 1710م، فأصبحت لهم منذ ذلك التّاريخ مؤسّسات خاصة بهم (معبد، مقبرة، محكمة حاخاميّة، مقصبة). وقد أدى هذا الانفصال إلى تراجع في الموارد الجبائيّة لطائفة اليهود التّوانسة، وبعد حوالي قرن ونيف وبالتحديد سنة (1824م) عيّن لهم الباي حسين قائدا خاصا بهم.

أمّا بالنّسبة إلى يهود جزيرة جربة الّذين يصنّفون من ضمن اليهود التّوانسة فإنّهم يعتبرون من أقدم الجاليات اليهوديّة الّتي حلّت بالبلاد التّونسية حيث تذكّر بعض الرّوايات غير الموثقة تاريخيّا وأثريّا أنّ وجود هذه الجالية بالجزيرة يعود إلى أواخر القرن السّادس قبل الميلاد وكان ذلك على إثر تهديم هيكل سليمان بفلسطين من قبل الملك البابلي "نبوخذ نصر" الّذي قام باجتياحها.

4) عهد الأمان وموقف ابن أبي الضياف من الطائفة اليهوديّة :

أ- عهد الأمان والأقليات الدّينية :

لقد صدر قانون عهد الأمان الصّادر سنة 1857 والمتألّف من ديباجة وإحدى عشر فصلا تنصّ كلّها - باستثناء الفصول 2 و5 و9 - على المساواة في الحقوق بين المسلمين وغيرهم، مع ضمان ذلك بجملة من التّراتيب المكرّسة لتلك الحقوق. حيث طالب الفصل الأوّل المساواة بين سائر سكّان البلاد على اختلاف أديانهم في تمتّعهم بحق حماية الدولة لهم. أمّا الفصل الثّالث يكرّس مبدأ التّسوية بين المسلم وغيره في استحقاق العدل. في حين أقرّ الفصل الرّابع بحريّة العقيدة الدّينية وحريّة ممارسة الشّعائر الدّينية. كما أكّد الفصل السّادس لأوّل مرّة على مبدأ تمثيليّة اليهود في مجلس الجنايات كلّما عهدت عليه قضيّة كان أحد أطرافها من أهل الذمّة.

وبناء على هذا القانون، أصبحت أوامر الأحبار اليهود -الذين يحكمون في قضايا الأحوال الشخصية بين اليهود وأمور الشهود الّذين يكتبون العقود والوثائق بينهم- تشفع بأوامر عليّة وبهذه الصّفة تمَّ الاعتراف الرسمي ضمنيا بالجهاز القضائي الخاص باليهود في الأحوال الشخصية. وقد اتبعت هذه الإجراءات الجديدة بنصوص قانونية تفصيليّة وتفسيرية جديدة صدرت في 14 سبتمبر 1858 تسمح لليهود بحقّ امتلاك العقارات بكافّة البلاد التونسية، وبلبس الشاشيّة الحمراء التي كانت محرّمة عليهم قبل صدور عهد الأمان. وممّا يؤكد حرص السّلطة على ضمان احترام تطبيق بنود عهد الأمان المتعلّقة بالجالية اليهوديّة حادثة طريفة جدّت بحاضرة تونس تهدف إلى طمأنة الطّائفة اليهوديّة والحيلولة دون الالتجاء إلى الحماية الأوروبيّة، فهذا رئيس ضبطية العاصمة (الشرطة) لا يتوانى عن معاقبة بعض الصّبيان لأنّهم اختطفوا الشاشيّة الحمراء من فوق رؤوس بعض اليهود (10).

ب- موقف ابن ابي الضياف من الطائفة اليهوديّة :

لقد عُرف المؤرّخ التّونسي ابن أبي الضياف بمواقفه الثابتة حيال أهم القضايا الشّائكة التي عاشتها البلاد التونسية خلال أواسط القرن التّاسع عشر للميلاد، فكان متفتّح الذهنيّة، مستنيرا في أفكاره التي تجاوز بها العديد من الآراء والمواقف الخاطئة الّتي سادت عصره. من ذلك موقفه من الجالية اليهودية عموما، أو عندما تثار وضعيّة أو حادثة ليهودي أحيل بموجبها على القضاء لدى مجلس الباي، والذي كان صاحب الإتحاف من أبرز أعضائه، إضافة إلى خبرته السّياسية التي امتدّت إلى حوالي ثلاثين سنة، بصفته الكاتب الخاصّ لأربع بايات واطّلاعه على أسرار الدّولة ومعايشته اليوميّة للقضايا السّياسية في تلك الفترة، خصوصا خلال فترة تطبيق الإصلاحات الدّستورية

---

10) ابن أبي ضياف أحمد : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، نشر : وزارة الشؤون الثقافيّة، تونس 1999، المجلد2، الجزء4، ص157.

بين سنتي 1857 و1864، حيث كانت مواقفه حاسمة مقارنة بمعاصريه، وهو ما شجّع الباي ليعطيه ثقته الكاملة في بلورة "عهد الأمان" الّذي تمّ الإعلان عنه سنة 1857 ثم دستور1861. فقد تبنّى تصوّرات سياسيّة معاصرة تؤمن بدولة المؤسّسات ودولة العدل والحريّة واحترام القوانين من خلال مزاوجته بين القراءة المقاصديّة للعلوم الشّرعيّة الّتي تلقّاها على أبرز فحول علماء الزّيتونة، وبين اطّلاعه وتفتّحه على الآراء اللّيبراليّة [11] .. فكان لا يقبل الاعتداء على الضّعيف ولا اضطهاد المظلوم مبديا تفهما تجاه أسباب اندلاع ثورة العربان التي قادها علي بن غداهم سنة 1864، بل كان في الآن نفسه مدافعا عن ضحايا مختلف الكوارث الّتي أصابت البلاد خلال فترة البايات التي عايشها. وفي هذا السّياق التّاريخي تبلورت تلك المواقف الّتي تميّز بها في طريقة تعامله مع مسألة "الذميّين" الّذين كانت بعض أوضاعهم بالبلاد التّونسية محلّ نقد لاذع من طرف القوى الأوروبيّة الكبرى.

إلاّ أنّ اللاّفت للانتباه هو أنّ مواقف ابن أبي الضّياف تجاه هذه القضايا كانت تستند بشكل قويّ إلى نصوص الشّريعة الإسلاميّة المتعلّقة بأحكام أهل الذمّة، وذلك خلافا لما نلمسه لدى غيره من رجال الدّولة المصلحين من غير الزّيتونيّين.

وقد كانت أفكار ابن أبي الضياف في حقيقة الأمر دعوة إلى إعادة الاعتبار للأقلية الدينية اليهودية التي قد تكون تعرّضت في بعض الأحيان إلى هضم جانب من حقوقها التي ضمنها لهم الدين الإسلامي وجسّمها الواقع التاريخي، سواء خلال الفترة النبوية أو بعدها في أكثر المحطات المضيئة التي شهدتها الحضارة الإسلامية.

11) كان أوّل احتكاكه بهذه الأفكار سنة 1842 بمناسبة زيارته الرسميّة إلى استنبول، وكذلك إثر زيارته إلى باريس صحبة أحمد باشا باي سنة 1846م.

إنّ المطّلع عل الإتحاف يستطيع أن يرصد العديد من الأمثلة التي تؤكّد المواقف الإيجابية لابن أبي الضّياف من مختلف القضايا المتصلة موضعية الطائفة اليهوديّة بالإيالة التّونسية، من ذلك :

– أمر الباي "أبو محمد" يهود الحاضرة بتنظيف فسقية الملاّسين، و قد فرض عليهم ذلك دون مقابل، بل أمر العاجزين منهم عن تنفيذ أمره أن يدفعوا عوضا ماليا عن ذلك. وقد دام العمل مدة شهر كامل "**واليهود في شدة**" – كما يقول ابن أبي الضّياف – "**لتخصيصهم بمباشرة العمل ومشاركة غيرهم الانتفاع بالماء**". ثمّ علّق على الحادثة بقوله : "**وما هكذا شأن ذمّة الإسلام الّتي أخبر الصّادق صلوات الله عليه بأن انتهاكها مؤذن بالذلّ والصّغار**" [12]. بل إنّ إصرار صاحب الإتحاف على تغيير هذه المعاملات السيئة المناقضة لسماحة الإسلام وعدله تجاه أهل الكتاب جعله يحذّر من أنّ الاستخفاف بكرامة الذميّ والمسّ بحقوقه الإنسانيّة والاقتصاديّة يثير غضب الخالق ويكون سببا في إذلال المسلمين وهوانهم أمام الأعداء. هذا ويعتبر تفسيره لأسباب العاصفة الّتي ضربت أسطول الباي سنة 1821 بكونها نتيجة الظّلم الذي سلّط على اليهود في عهده موافقا بذلك مقصد الشّريعة في إرساء قيم العدل والمساواة بين أفراد مجتمع الدّولة على اختلاف مرجعيّاته العقديّة.

– وكذلك حين أصدر أحمد باشا باي (1837–1855) أمرا يقضي بـــ "السّماح لأبناء الطائفة اليهودية بلبس الشاشيّة الحمراء وشراء الأراضي والعقّار والاشتغال بالفلاحة.."، أشاد ابن أبي الضياف هذا الإجراء الّذي أزال حيفا، الإسلام منه براء. بل كان في حقيقة الأمر تسوية لوضعيّة غير سليمة وفق ما نصّت عليه الشّريعة الإسلاميّة. وقد أشاد صاحب الإتحاف بهذا الإجراء بقوله : "**وهو من التّسوية بمقتضى عهد الأمان، بل بمقتضى العدل وما يقتضيه حال كلّ زمان، وذلك أنّ تعيين زيّ مخصوص لأهل الذمّة ليس من أصول**

12) ابن أبي ضياف أحمد، المصدر السّابق.

الدّين، وأن النبي صلى الله عليه وسلّم لم يُغيّر زيّ يهود المدينة، وهم من سكّانها معه" [13].

وكان لابن أبي الضّياف موقف صريح وشجاع من هذه الممارسات الّتي كانت ذريعة لفرض عهد الأمان بما يخدم المصالح الاستعماريّة للقوى الأوروبيّة عصرئذ قصد الهيمنة عل العالمين العربي والإسلامي...حيث حرص مؤرّخنا على شرعنة مواقفه بالاستناد إلى النّصوص الدّينية في معاملة أهل الذمّة من اليهود والنّصارى، معاملة تحترم إنسانيّتهم وحقّهم في التملّك والعمل في كل المجالات إلى جانب ممارسة شعائرهم الدّينية بكلّ حريّة.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ بعض النّخب التونسية قد أبدت تحفظات شديدة تجاه نصّ عهد الأمان الّذي منح حقّ المواطنة الكاملة لأهل الكتاب، إلاّ أنّ ابن أبي الضّياف اتّخذ منهم موقفا حاسما حين اعتبر أصحاب تلك المواقف "**من جهّال الحاضرة** " لا سيّما وأنّ بعضهم اعتبر تلك الحقوق الممنوحة لأهل الكتاب "**من أشراط السّاعة** " بل انبرى لدحض أفكارهم بالتّأكيد على أنّ "**... ما حلّ بالقطر من النّقص في الأموال والأنفس والثّمرات، من أعظم أسبابه ظلم أهل ذمّتنا ترك وصيّة نبيّنا**" [14] بل إنّه أحال هؤلاء إلى بعض المصادر الفقهية وحثّهم على الاطّلاع عليها والتمعّن في معنى "الذمّة" وما ينقضها وما لا ينقضها، من ذلك كتاب "الأشباه والنّظائر" لابن نجيم وهو من كتب الحنفيّة في أحكام الذميّ، وكتاب "الأحكام السلطانيّة" للماوردي وهو من كتب الشافعيّة، وكذلك كتاب "الفروق" للقرافي، وهو من كتب المالكية، وخاصّة الفرق الثّامن عشر والمائة والفرق الّذي بعده ممّا يؤكد أنّ الرّجل كان على اطّلاع واسع على تفاصيل المنظومة الشرعيّة الخاصّة بأحكام أهل الذمّة.

---

13) المصدر السّابق.

14) الاتحاف، المجلّد الثالث، ص.260.

ولا شكّ أنّ موقف ابن أبي الضّياف من هذه المسألة قد اتّسم بروح التّسامح والدّعوة إلى المساواة بين كافّة أبناء الوطن الواحد مهما كانت انتماءاتهم الدّينية ومشاربهم المذهبيّة، إذ كرّر في أكثر من مناسبة أنّ اليهود هم : "**إخواننا في الوطن**" [15] وهو طرح جريء بالنّسبة لمسلم عاش في تلك الظّروف التّاريخية الدّقيقة والصّعبة التي حفّت بالإيالة التّونسيّة داخليّا وخارجّا.

5) المسلمون واليهود في تونس، مواقف نبيلة في التّسامح والوفاق :

حفل كتاب "الهديّة أو الفوائد العلميّة في العادات التّونسية" لمؤلفه محمد بن عثمان الحشائشي الشّريف، بإشارات عديدة حول العلاقة الاجتماعيّة الّتي ربطت بين مسلمي القطر التونسي والطائفة اليهوديّة به في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن الماضي، وهي علاقة تعبّر عن مدى اندماج الطائفة اليهوديّة في النّسيج الاجتماعي التّونسي، كما تعكس روح التّسامح والوئام الّتي سادت بين الطّرفين في أكثر من مجال، فعلى المستوى الاجتماعي يذكر الحشايشي أنّه "قلّما أن تجد دارا من ديار المسلمين بغير يهودي أو يهوديّة" يريد بذلك أنّ اليهود والمسلمين كانوا متجاورين في السّكنى داخل الفضاء الحضري الواحد ومندمجين اجتماعيّا إلى حدّ التّعايش اليومي المشترك حيث تتوارى الفوارق الدّينية والعرقيّة أمام قيم حسن الجوار. أمّا على مستوى التّعامل الاقتصادي فقد أبرز المؤلّف أنّ يهود مدينة تونس من فئة التجّار المنتصبة محلاّتهم التجاريّة في كامل المدينة وأرباضها كانوا محلّ ثقة المسلمين رغم الفوائض الّتي كان يأخذها هؤلاء التجّار نظير ما كان المسلمون يرهنون أثاثًا وحليًّا ومجوهرات وغيرها، ورغم أنّ عدم الوفاء يترتّب عنه بيع المرهون بعد مضيّ سنتين. وقد بلغت ثقة المسلم باليهوديّ أنّه "**إذا احتاج يتعامل مع اليهود ولو بفائض كبير ويطلعه على أسراره**". كما مدح الحشايشي بعض العادات

15) المصدر السّابق، المجلد الثّالث، ص 85، وكذلك الجزء6، ص 88.

الحميدة ليهود القطر التّونسي وبينها "**أنّهم يذبّون عن حقوق الفقراء من بني جنسهم ويقومون بمعاشهم ولباسهم من صندوق معيّن لهذا الأمر**". ولئن كانت المعلومات التي أوردها المؤلف تتعلق بيهود عصره كما عايشهم هو، وهو ابن مدينة تونس والعارف بدواخل البلاد إلاّ أنّه لم يغفل عن العلاقة التوافقيّة بين مسلمي ويهود البلاد حيث يقول "**وهناك ألفة بين يهود هذا القطر ومسلميه منذ قرون فارطة**".

لقد كان المؤدّب محرز بن خلف من بين الشخصيّات التّاريخية الّتي حضيت باحترام شديد وتقدير لدى المسلمين التّونسيين فحسب بل حتّى لدى الطائفة اليهوديّة التي حفظت له مواقفه النّبيلة تجاهها في فترة عصيبة من تاريخها حيث لم يكن يسمح لليهود في العهد الصّنهاجي بالسّكنى داخل أسوار مدينة تونس، فكان هؤلاء يقطنون خارج المدينة في الموضع المسمى بـــ"الملاّسين" الذي كان مكشوفا وعرضة لمخاطر النّهب والتعدّي. فما كان من الشّيخ محرز ابن خلف وهو الفقيه السنيّ المالكي إلاّ أن بذل قصارى جهده لحماية الطائفة اليهوديّة مستغلاّ نفوذه الرّوحي واحترام الجميع له "للسّماح لهم بالعيش داخل أسوار مدينة تونس كغيرهم من المسلمين"، بل ذهب إلى أكثر من ذلك إذ حدّد لهم مكانا قريبا من بيته ومسجده وهو ما يعرف بـــ"الحارة" في حيّ الحفصيّة، فانتقل إليه اليهود واتّخذوه سكنا لهم" (16).

وهكذا اجتمع اليهود مع المسلمين في حبّ سيدي محرز وإجلاله حتّى أنّهم كانوا يتفقّدون الفانوس القائم على ضريح الشّيخ ويضيفون إليه الزّيت اللاّزم لإبقائه دائم الإنارة، بل إنّ بعض اليهود خصّصوا أوقافا لزاوية : "سيدي محرز".

16) ابن حمدة، عبد المجيد: سيدي محرز بن خلف وموقفه من الشّيعة وأهل الذمّة، سلسلة آفاق إسلاميّة، وزارة الشؤون الدينية، تونس، جانفي 1994، ص.147.